أوهام تخلق متاعب

للدكتور زكي مبارك

في صدر هذه الليلة عانيتُ متاعب كادت تقصمهم ظهري ، وكدت أخشاها على حياتي ، ثم لطف الله فتبددت بعد ساعات كانت أطول من الآباد

فما تلك المتاعب ؟

هي متاعب خلقتها أوهام في غاية من السخف ، ولكن النص عليها واجب لمنفعة القراء ، فقد يكون فيهم من تعتريه مثل تلك الأوهام في بعض الأحوال

التفتُّ بغتةً فرأيت نفسي تراجع طوائف من الذكريات الموصولة بمعاملاتي مع جماعات من المعارف والأصدقاء ، فانقبض صدري أشد الانقباض ، وتجسمتْ أمام خيالي ألوان الأوهام بصورة لم أشهد مثلها من قبل ، صورة مروِّعة قاسيتُ منها ما تقاسي النار من الريح العَصُوف

وفي فورة تلك الكروب جاء لطف الله فرأيتني أقول : ومَن أولئك وهؤلاء حتى أُعاني في العتب عليهم مثل هذا العذاب ؟ إذا غدر بك القريب فليس بقريب ، وإذا تجنَّى عليك الصديق فليس بصديق ، ومن واجبك أن تحفر قبراً تدفن فيه من لا يرعى حق القرابة ، ولا يحفظ عهد الإخاء . ما اهتمامُك بمن يرضيهم أن تَشقَى نفسُك ؟ وما عتبُك على من يسرهم أن تزلّ قدمك ؟ وما حزنُك على ضياع مودّة كان يجب أن تضيع لأنها في رعاية الضائعين ؟ ! أمن أجل خلائق مِراض القلوب تُمرض نفسك ؟ أمن أجل إخوانٍ غَدَرة تؤذي قلبك ؟ أهؤلاء وأولئك يستحقون أن تفكر فيهم ساعةً من ليل ؟ وهل أكرموا أنفسهم حتى يكرموك ؟ وهل أعزوا حياتهم حتى يُعزوك ؟ إن حزنك لما صنعوا معك دليلٌ على أنك دائم الإشفاق عليهم ، وقد نصحك الشاعر صادق رستم حين قال :

شرُّ البليَّة إشفاقٌ على فئةٍ
لو كنتَ تؤكل ما عفّوا ولا شبعوا
تبيتُ تبكي لصَرف الدهر يفجعهم
ولو رأوك على الأعناق ما دمعوا !

لا تشفق عليهم ، وأشفق على نفسك أيها الغافل عن حقائق الخلائق ؛ فلو أنك استبقيت ما أنفقت من الوقت في صحبتهم لتنفقه في تربية الخنازير ، لكنتَ اليوم من كبار الأغنياء ... وقد نصحك المثَل المصريُّ فما انتصحت ، المثَل الذي يقول : « كلُّ ما تزرع ينفعك ، إلا ابن آدم تزرعه فيقلعك » ! وهؤلاء يحققون صدق هذا المثل أفظع تحقيق ، فهم يقوّلونك ما لم تقل ، ويذيعون عنك أغرب الأحاديث ، وقولُهم فيك مسموع ، لأنهم عرفوك ، ومن حق من عرفك أن يقول فيك ما يشاء

وما ضرَّني إلا الذين عرفتُهم
جزَى الله خيراً كلَّ من لست أعرفُ

ما جزَعُك من غدر صديق ؟ وما حزَنُك من لؤم أليف ؟ أنتَ أنتَ ، ولن يكون بلاؤك بأولئك وهؤلاء غير سحابة صيف ، ثم ترجع إلى إسباغ نعمائك على الجاحدين

تذكَّر يا غافل فضل الله عليك . تذكَّر أنه عصمك من الجحود حين أغناك عن الناس ، والجحود رذيلة لا يتعرض لها غير المبتَلَيْن بتقبُّل إفضال المفضلين من أهل الكرم المطبوع أو المصنوع

أنت تتحدث كثيراً عن التأدب بأدب الله ، فهل تأدبت بذلك الأدب الجميل ؟

إن الله يسبغ نِعمه على الكافرين بعزته السامية . إن الله يعطي الملحدين أضعاف ما يعطي المؤمنين ، كما يفعل الأب الرحيم حين يؤثِر الابن السقيم على الابن السليم ، فما أنت وذلك الأدب الرفيع ؟

وأراك تبدئ وتعيد في أحاديث البر بأصدقائك ، ولو ناقشوك لأفحموك ، فما قيلوا بِرك إلا حين اطمأنوا إلى أنك رجلٌ كريم ، والكريم غير منَّان

وما الوقت الذي تقول إنك أغدقته على الجاحدين من إخوانك ؟ لقد دفعوا ثمن المعروف أضعافاً مضاعفة ، لو كنت تنصف ، دفعوه تحيات وابتسامات ، وهي معانٍ تفوق كرائم

الأثمان ، ودفعوا ما هو أعظم ، لو كنت تعقل ، فقد أشعروك بلسان المقال أو لسان الحال أنك رجلٌ نفّاع ، وذلك أعظم ما يوصف به أكابر الرجال

أنت تمنّ على أصدقائك ؟ فما ذا أبقيت للمتجرين بالأخلاق ؟!

كان الظن أن تنسى جميلك إن كنت من أصحاب الجميل ، ولكنك . . .

وهنا أفقتُ قليلاً فساءلتُ نفسي عن سبب التفوه بذلك المنّ السخيف :

ماذا أكلت اليوم من الطعام ؟ ومن لقيت من الناس ؟

يجب أن أعرف ما وقع في يومي هـذا ، لأعرف سبب السخف الذي وقعت فيه حين منننت على معارفي وأصدقائي

في عصرية اليوم - وهو الخامس من شهر آب - كنت أهنئ فلانة بعيد ميلادها السعيد ، وفي لحظة من لحظات الصفاء حدثتها أني ولدتُ في مثل هذا اليوم ، فهتفت بحماسة مصحوبة بالحنان :

Nous arrivons en même temps !

نعم ، يا سيدتي ، وثمرات الأعناب في شهر آب

ثم قُلقِلتْ نفسي قلقلة عنيفة حين تذكرت أني لا أحتفل بعيد ميلادي كما يحتفل أكثر الناس ، وكيف يتيسر ذلك وأنا أُخلَق في كل لحظة خلقاً جديداً ، باعتبار ما يَرِدُ على عقلي وروحي من شتيت الآراء والأهواء ؟

وسألتني عما أستظرف من هدية الميلاد فأبيت الإفصاح عما أريد ، وإن كنت أشرت إلى أني معجب بدالية مسلم بن الوليد !

وغفلة فلانة عن مدلول هذه الإشارة لم تزعجني ، لأنها قليلة المعرفة بقصائد صريع الغواني !

فما السبب الأصيل لاضطرابي وانزعاجي في هذا المساء ؟

لعل السبب يرجع إلى أني قضيت صباحية اليوم بوزارة المعارف ، وهي مملوءة بالمراوح ، ولتفصيل ذلك أقول :

في مكاتب كبار الموظفين بوزارة المعارف مراوح كهربائية تدور من جانب إلى جانب ، ليقلّ خطرها فيما يقال ، وأنا رجلٌ يؤذيه البرد الطبيعي أشد الإيذاء ، فكيف يتحمل البرد الصناعي وهو ثقيلٌ ثقيل ؟

أنا لا أخاف المراوح الثابتة ، لأن تجنب تيارها مستطاع ، وإنما أخاف المراوح الدوارة ، المراوح التي تغزو الصدور والمفاصل برغم التحرز والاحتراس

وهذه المراوح كثيرة في وزارة المعارف ، وأنا منها في شقاء وعناء ، ولا سيما المروحة الجاثمة بمكتب تفتيش اللغة العربية ، ومن أجل هذا أوصي زائري بمقابلتي في مكتب الأستاذ علي أدهم سكرتير الرجل النبيل شفيق بك غربال ، لأنه مكتبٌ مضنونٌ عليه بالمراوح ليسار الطبيعة في أمان

وآه ثم آه من المراوح في وزارة المعارف !

إنها تخلق تيارات عنيفة الإيذاء ، وهي السبب في بلبلة بالي في هذا المساء

وأعجبُ العجب أن المراوح الدوّارة تحتلّ جميع المكاتب الحكومية ، وكأنها الغنائم المبذولة بغير حساب ، فأين من يرحمنا من تلك الرياح الباغية ؟ وأين من يعرف أن القيظ في أحر أحواله أروح من البرد ؟

عرفتُ بالضبط والتحديد سبب اعتكاري في هذا المساء ، فما عن لؤم أو حقد غمزت معارفي وأصدقائي ، وإنما هي جناية المراوح بوزارة المعارف ، وسيأتي يومٌ قريب أو بعيد تُرفَع فيه تلك الآصار الثقال

إن قوماً يعجبون من ثورتي على الناس والزمان ، فهل يعرفون أن المراوح تلفح وجهي في كل مكان ؟

لو صفا دهري لصفوت ، ولو عدل زمني لعدلت ، واختلالُ الموزون يُخلّ الميزان

بمن أثق ؟ وعلى من أعتمد ؟ وما اطمأنت إلى صديق إلا رأيته بعد حين أو أحيان وصوليًّا عديم الروح والوجدان

ومع هذا أصفح عن أبناء زماني ، لأنهم أبناء الزمان

ومع هذا أيضاً أبتسم حين يلقاني فلان وعلان

فضحتكم يا جماعة المنافقين ، فالتمسوا قلباً غير قلبي ، وجيباً غير جيبي ، وانتظروا غضب الله على جميع المرائين

ثم ما ذا ؟

ثم أشير إلى غربتي في وطني بالفكر والروح ، غربة قاسية لا ترحم ولا تلين ، غربة أتوحّد بها توحّد الليث في العرين .

زكي مبارك